

اجتهادات أى خطاب دينى؟

أصبحت عبارة تصحيح الخطاب الدينى أو اصلاحه أو تغييره من أكثر العبارات تداولاً فى الجدل العام. ويزداد تداول هذه العبارة فى أعقاب العمليات الإرهابية الكبيرة، فيبدو الأمر وكأننا وجدنا العلاج الشافى

غير أنه عندما يكثُر الحديث عن علاج، ولا يظهر له أثر فى الواقع بل يزداد المرض وينتشر ويتشعب، تصبح المشكلة أبعد بكثير من أن نحصرها فى أننا نتكلم ولكننا لا نفعل. ولذلك ينبغى التفكير فيما إذا كان هناك أساس لهذا الكلام أصلاً، وهل يوجد ما يمكن تحويله إلى فعل، وإلى أى مدى يعود المرض إلى نصوص دينية موجودة منذ قرون متفاوتة. فإذا توقفنا قليلاً عن ترديد عبارة تصحيح الخطاب الدينى بطريقة «ببغاوية»، لكى نفكر كثيراً فى جوهر المشكلة، فربما نصل إلى أنها تكمن فى المجتمع وبيئته المشوهة التى تدفع البعض إلى استحضار نصوص موجودة منذ قرون لرفعها ك لافتة ضد هذا المجتمع. وإذا أمعنا التفكير فى هذا الأمر، فربما نفهم العلاقة بين التطرف الذى يستند إلى خطاب دينى، والواقع الذى يدفع إلى هذا التطرف، بطريقة أكثر عمقاً من مجرد تصور أن شخصاً يتطرف لمجرد أنه قرأ كلاماً معيناً أو سمعه. وعندئذ قد نعى أن العلاقة التى نقيمها بين الإرهاب ونصوص دينية معينة تُعد سطحية ومعزولة عن الواقع. فمن أهم الأسس التى يقوم عليها علم اجتماع المعرفة أن العلاقة

بين النص أى نص والواقع لا تحدث فى فراغ بل ترتبط بظروف يعيش فيها الإنسان الذى يتأثر بهذا النص وفق تأويل معين له. وإذا فعلنا ذلك، وبحثنا بالتالى عن جوهر الأزمة، قد نجده فى حالة المجتمع والثقافة السائدة فيه، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لفئاته المختلفة، وطبيعة النظام السياسى الذى تؤثر سياساته وممارساته فى حياة الناس. فكلما كان المجتمع أكثر محافظة سادت فيه ثقافة مغلقة، وخاصة حين يتخلى التعليم عن دوره الحقيقى فى تفتيح العقل. وكلما كان النظام السياسى متسلطاً واحتكارياً ومقيّداً للحقوق والحريات، صار حائلاً أمام انفتاح ثقافة المجتمع وتفتح الزهور بألوانها المختلفة فيه. وعندئذ تتراكم عوامل الاستياء والغضب والاغتراب والضياع تحت السطح، يؤثر الخطاب الدينى المتطرف فى أولئك الذين بلغ غضبهم أعلى مبلغ ليس بسبب تطرفه فقط، ولكن لكونه مناسباً للتعبير عن هذا الغضب.

ولذلك يودى الخطاب الدينى المتطرف الآن الوظيفة نفسها التى أدتها من قبل خطابات أيديولوجية أخرى تتيح بنيتها أن تُستخدم كلافات للتعبير عن الغضب فى مجتمعات هى التى تحتاج إلى إصلاح.